حلاوة الدعاء

obeikandl.com

obeikandl.com

المُقَدِّمَة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده، محمدٍ ﷺ، وعلى آله وصحبه.

ثمّ أمّا بعد:

فإنّ عبادة الدعاء من أجلّ العبادات وأنفعها، ويكفي قول النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**» (رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني).

وقد كثرت الكتب المصنَّفة فيه والتي قد عُنيت بذكر آدابه وفضائله وأسباب إجابته تارةً، أو بذكر الأدعية الصحيحة الواردة في الكتاب والسُّنّة أخرى؛ إلّا أنّه ـ كغيره من العبادات ـ قد صار عند كثيرٍ من المسلمين، مجرد ألفاظٍ تُسرد أو كلماتٍ تُتلى مع غياب القلب عن تدبر معناها وعن التضرع والإلحاح بتحصيل فوائدها، فهذه محاولة لبيان أسباب تحصيل فوائد الدعاء، ومن ثَمَّ تحصيل حلاوته في القلب، دون تطرقٍ إلى ذكر ما كفاني غيري مؤنة توضيحه في الكتب المصنَّفة في الدعاء إلّا فيما تمسُّ الحاجة إلى ذكره، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

كتبه

دكتور هشام عبد الميلاد الزهيري

obeikandl.com

obeikandl.com

الفَصْلُ الأَوَّلُ

التعريف بالدعاء وأنواعه

الدعــاء: هـو قصد العبد ربه والتوجه إليه وحـده لا شريك له بطلب جلب النفع وكشـف الـضرّ، والثناء عليه سـبحانه بما هو أهلـه من المحامد راجيًـا في ذلك كلّه وجهه سبحانه لا شريك له.

قال الشـيخ عبد الرحمن بن حسـن آل الشـيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفرق بين الاستغاثة والدعاء أنّ الاسـتغاثة لا تكـون إلّا من المكروب، والدعاء يكون من المكـروب وغيره، فهو أعمّ مـن الاسـتغاثة، فبينهما عمـومٌ وخصوصٌ مطلق؛ فكل اسـتغاثة دعاء، وليـس كلّ دعاءٍ استغاثة.

قلتُ:

والدعاء نوعـان: دعاء ثناء، ودعاء مسألة؛

فدعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفعٍ أو كشف ضرٍ.

ودعاء الثناء: هو تعظيم الله وتمجيده، ومدحه وحمده بما هو أهله، وهو أفضل من دعـاء المسـألة؛ ففي الحديـث: «**أفضل الذكر: لا إلـه إلّا الله، وأفضل الدعـاء: الحمدُ لله**» (رواه الترمذي وحسـنه الألباني)؛ وذلك ـ والله أعلم ـ لأنّ دعاء الثناء مسـتلزم لدعاء المسـألة؛ إذ المثني على الله بما هو أهله يرجو بذلك ثواب الله ويخشـى عقابه، فكأنّه يسـأل الله رحمته وثوابه ويستعيذ به من غضبه وعقابه.

وقال شيخ الإسلام:

الدعاء نوعان: دعاء عبادة[1]، ودعاء مسألة، وكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

وقال ابن القيم: قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ (الأعراف: ٥٥) يتناول نوعي الدعاء لكنّه ظاهر في دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة: ١٨٦)، يتناول نوعي الدعاء، وبكلٍ منهما فسّرت الآية قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني، وليس هذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه معًا، بل هذا استعماله في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعًا، وهذا يأتي في مسألة الصلاة وهل نُقلت من مسماها في اللغة وصارت حقيقة شرعية، أم هي باقية على الوضع اللغوي وضمّ إليها أركان وشرائط؟ فعلى ما قررناه لا حاجة إلى شيءٍ من ذلك، فإنّ المصلي من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء: إمّا دعاء عبادة وثناء؛ أو دعاء طلب ومسألة، وهو في الحالين داعٍ.

فائدة:

قال العلماء: في الدعاء معانٍ:

أحدهما- الوجود؛ فإنّ من ليس بموجود لا يُدعى.

---

(١) الأدق ـ والله أعلم ـ أن يُقال: دعاء ثناء بدلًا من دعاء عبادة لأنّ دعاء المسألة أيضًا دعاء عبادة إلّا أنّ مقصد الشيخ بيان دخول الدعاء في العبادة معنىً لأنّ العابد يرجو بعبادته ثواب الله ورحمته ويخشى عقابه؛ ولذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضعٍ آخر: «وكذلك الذاكر لله، والتالي لكتابه ونحوه طالبٌ من الله في المعنى، فيكون داعيًا عابدًا»، قلتُ: وقد ورد عن السلف ـ رحمهم الله ـ في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر: ٦٠) قولان:

أحدهما- ادعوني أستجب لكم: أي اعبدوني وأطيعوني أثبكم.

والثاني- ادعوني: أي اسألوني حوائجكم أقضها لكم.

الثانـــي- الغِنى؛ فإنّ الفقير لا يُدعى.

الثالـــث- السمع؛ فإنّ الأصمّ لا يُدعى.

الرابـــع- الكرم؛ فإنّ البخيل لا يُدعى.

الخامس- الرحمة؛ فإنّ القاسي لا يُدعى.

السـادس- القدرة؛ فإنّ العاجز لا يُدعى.

قلـتُ: فينبغـي للداعـي أن يوقـن عند دعائه بأنـه يدعو من اتصـف بكل صفات الكمال؛ ليكون ذلك أدعى لتضرع القلب وإخباته وخشيته ورجائه وتوكّله ومحبته.

obeikandl.com

الفصل الثاني
مكانة الدعاء في الإسلام

لا شك أنّ للدعاء في الإسلام مكانةً عظيمةً ويكفي للدلالة على ذلك قوله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**» (رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني)، وكون الركن الأعظم من أركان الإسلام ـ بعد الشهادتين ـ وهو الصلاة مشتملاً عليه من أولها إلى آخرها حتى أنّ هذا الركن سُمّي بالصلاة وهي لغةً بمعنى الدعاء، ولعظيم مكانته قال ﷺ: «**ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء**» (رواه الترمذي وحسنه الألباني)، وقال ﷺ: «**أفضل العبادة الدعاء**» (السلسلة الصحيحة: ١٥٧٩)، وقال ﷺ: «**من لم يَدْعُ الله؛ يغضب عليه**» (السلسلة الصحيحة: ٢٦٥٤).

ويشهد كذلك لعظيم مكانته الكمّ الهائل من الأدعية والاستعاذات الواردة في السُّنّة الصحيحة سواءً المطلقة أو الموظفة لأوقاتٍ وأحوالٍ معينة، وكذا الأحاديث الكثيرة المتكاثرة التي تخبر بأوقات إجابة الدعاء وآدابه وكيفيته وأسباب إجابته وموانعها وفضله ممّا يدلّ على عظيم أهميته.

ويدلّ لذلك أيضًا ما أورده القرآن من أدعية الأنبياء والرسل وعباد الله الصالحين مادحًا لهم بدعائهم بها ومعلِّمًا لنا الاقتداء بهم في ذلك.

ولعظيم أهميته كان هو سلاح المؤمنين في مواجهة أعداء الدعوة فقد أمر سبحانه نبيه ﷺ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٩)، وأخبر سبحانه عن عباده المؤمنين أنهم يقولون في مواجهة الظلم والظالمين ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (يونس: ٨٥، ٨٦)، ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ (الأعراف: ٨٩)، ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا

وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٠)، ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣٠)، ﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (الممتحنة: ٤،٥).

ولمزيد مكانته صار هو ديدن الأنبياء والصالحين للنجاة من أهوال يوم القيامة؛ فقد أخبر رسولنا ﷺ عن حال الأنبياء يوم القيامة: «**ودعوى الأنبياء يومئذٍ: رب سلِّم سلِّم**».

وأخبر سبحانه عن دعاء المؤمنين يوم القيامة فقال: ﴿ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (التحريم: ٨).

ومن كريم فضله أنّه سبب رفع البلاء ومنعه، فقد مرّ النبي ﷺ بقومٍ مبتلين، فقال: «**أما كان هؤلاء يسألون العافية؟!**» (أورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ٢١٩٧)، وقال ﷺ: «**لا يردُّ القضاء إلّا الدعاء**» (أورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ١٥٤).

ولعلم النبي ﷺ بمكانته وأهميته كان إذا حزبه أمرٌ، قال: «**يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث**» (أورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم[٢٤٩١])، وكان إذا حزبه أمرٌ «صلّى» (رواه أبو داود وصححه الألباني)، الصلاة من أولها إلى آخرها دعاء.

وقد علم الصحابة هذه الأهمية فكانوا يسألون عنه ففي الصحيحين أنّ أبا بكر قال: يا رسول الله: علمني دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال: «**قل: اللهمّ إنّي ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلّا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني؛ إنّك أنت الغفور الرحيم**» وروى مسلمٌ أنّ أعرابيًا جاء فقال: يا رسول الله علمني كلامًا أقوله، فقال:

«**قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، سبحان الله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العزيز الحكيم**»، قال: فهؤلاء لربي فما لي؟ قال: «**قل: اللهمّ اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني، وعافني**» وروى الترمذي وصححه الألباني أنّ عائشة قالت: قلتُ: يا رسول الله، أرأيت إن علمتُ أيَّ ليلةٍ ليلةُ القدر ما أقول فيها؟ قال: «**قولي: اللهمّ إنّك عفوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عنّي**»، وقال شَكَل: علِّمني يا رسول الله دعاءً، فقال: «**قل: اللهمّ إنّي أعوذ بك من شر سمعي، ومن شرّ بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر منيِّي**» (رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني).

وقد عَلِمَ ﷺ من صحابته اجتهادهم في الدعاء وطلبهم لأعلى المراتب فيه، فقال لهم: «**أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهمّ أعنّا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك**» (رواه الإمام أحمد في المسند وصححه الألباني)؛ ولذا أيضًا كثر في الأحاديث أمره ﷺ لآحادٍ من الصحابة أن يدعوَ بدعاءٍ معين كقوله لمعاذ: «**لا تدع أن تقول في كل صلاة: ربِّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» (رواه أبو داود والنسائي وصححه الألباني ـ رحمهم الله جميعًا ـ)، وأمرهم جميعًا ـ والأمّة معهم ـ «**ألِظُّوا بياذا الجلال والإكرام**» (رواه الترمذي وحسنه الألباني)، وذلك أمرٌ بالمداومة والملازمة والإكثار.

وكيف لا يدركون أهميته وقد قال ابن عمر: كان يُعَدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرّةٍ من قبل أن يقوم: «**رب اغفر لي وتب عليّ، إنّك أنت التوّاب الغفور**» (رواه الترمذي وأبو داود وصححه الألباني)، إلّا أنّ أبا داود رواه بلفظ: «التواب الرحيم».

وعن ابن عمر رضي الله عنه أيضًا أنّه قال: قلّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلسٍ حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «**اللهمّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنّتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا**

مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا....» إلى آخر الدعاء المشهور (رواه الترمذي وحسنه الألباني).

وعن عائشة أنّها قالت: ما خرج رسول الله ﷺ من بيتي قطّ إلّا رفع طرفه إلى السماء، فقال: «**اللهمّ أعوذ بك أن أضِلّ أو أُضَلّ، أو أزِلّ أو أُزَلّ، أو أظلِم أو أُظلَم، أو أَجهَلَ أو يُجْهَلَ عليّ**» (رواه أبو داود وصححه الألباني)، فهذه المداومة المتواترة عنه ﷺ على الدعاء تدلّ بوضوح على أهمية هذه العبادة في الإسلام.

obeikandl.com

الفصل الثالث

حلاوة الدعاء وكيفية تحصيلها

فإنّ للدعاء حلاوة ـ خاصةً دعاء الثناء ـ قد ذاقها وعرفها الصالحون وأخبروا عنها:

قال بعض الصالحين: «إنّه ليكون لي إلى الله حاجة؛ فأدعوه، فيفتح لي من لذيذ معرفته، وحلاوة مناجاته مالا أحب معه أن يعجِّل قضاء حاجتي خشية أن تنصرف نفسي عن ذلك؛ لأنّ النفس لا تريد إلّا حظها، فإذا قُضي انصرفت» (انظر: «مجموع الفتاوى» ١٠/ ٣٣٤).

وقال سعيد بن جبير لمّا أخذه الحجاج: «ما أُراني إلّا مقتولًا، فإنّي كنتُ أنا وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء، ثمّ سألنا الله الشهادة، فكِلا صاحبيَّ رُزقها، وأنا أنتظرها»، قال داود بن أبي هند: «فكأنّه رأى أنّ الإجابة عند حلاوة الدعاء».

وقال بعض الصالحين: «من أراد معرفة حظ دعائه من الإجابة والقبول، فلينظر كيف وجد طعمه».

وقد قال بعض الحكماء: «من وجد ثمرة عمله عاجلًا، فهو دليله على وجود القبول آجلًا».

وقال الشيخ محمد بن إسماعيل: «من اعتاد مناجاة ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ في الخلوات، ذاق من حلاوة المعرفة ولذة المناجاة ما تتصاغر معه الدنيا بما فيها».

قلتُ: وبمعرفة هذا يتبين مقصود **سفيان الثوري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: «لقد أنعم الله على عبدٍ في حاجةٍ أكثر من تضرعه إليه فيها» يعني أنّه كلما تأخرت الإجابة كلّما طالت المناجاة فحصلت اللذة وزاد القرب.

وقد سبق النبي ﷺ كلَّ هؤلاء، فقال: «**وجُعلت قرة عيني في الصلاة**»، وكان يقول إذا أصبح ثلاثًا: «**أصبحتُ أثني عليك حمدًا**»، وإذا أمسى: «**أمسيتُ أثني عليك خيرًا**» فأخبر أنّ حاله في يومه وليلته هو الثناء على ربه عزّ وجلّ، وقد تجلّت هذه الحلاوة أيّما تجلٍّ في إطالته ﷺ في صلاته إذا صلّى وحده ـ وقد ملأها بالثناء على ربه والإطالة في ذلك سواء في أدعية الاستفتاح أو في ركوعه وسجوده أو بعد رفعه من الركوع، والمتأمِّل لأدعية الصلاة المنقولة عنه ﷺ يدرك ذلك، وعسى ـ إن شاء الله ـ أن نتعرض لذكر بعضها.

فإن قيل: فما بالُ أكثر الناس لا يذوقون تلك الحلاوة؟ قلتُ: لتحصيل حلاوة الدعاء وحلاوة المناجاة أسبابٌ نذكر ما تيسر منها ـ إن شاء الله ـ.

أسباب تحصيل حلاوة الدعاء:

السبب الأول- المعرفة بأهمية هذه العبادة العظيمة وبمكانتها في الإسلام:

وقد تقدّم بيان ذلك والدلالة عليه بحمد الله.

السبب الثاني- اليقين بالحاجة الملِحة إلى ضرورة التغيير وأنّ الدعاء سبيل ذلك:

وكيف لا يوقن العبد بذلك وهو يرى نفسه كلّما استقام على الخير أيامًا عاد إلى الكسل والغفلة شهورًا، وكلّما زهد حينًا عاد إلى الفتور والشهوة أحيانًا؟

أم كيف يشك المرء في ذلك وهو لا يعمل بكل ما يعلم من الخير، بل وما يجهله أكثر ممّا يعلمه، ثمّ إنّ في أبواب الخير أولويات تحتاج إلى بصيرة، ولا يُوفق العبدُ في ذلك كلّه إلّا بمعونة الله وهدايته وتسديده؟

وهل يشك العبدُ في احتياجه المُلِحِّ إلى الدعاء وهو يرى في نفسه من الآفات والعيوب ما يرى، بل ربما كان ما خفي عنه أعظم؟؟

أم هل يستطيع المرء أن ينكر فقره إلى الله وهو لا يستطيع الجزم لنفسه بالإخلاص في العمل الصالح، ولا بالصدق فيه، ولا بإحسانه وإتقانه، ولا بقبوله؟؟

فمن أراد تحصيل حلاوة الدعاء، فعليه أن يوقن بضرورة تغييره لحال نفسه وإصلاحه ما بينه وبين الله أولًا ثمّ عليه أن يوقن أنّ سبيل صلاحه وهدايته هو في التضرع واللجوء إلى الله بالدعاء ثانيًا.

ويعين العبد على إقناع نفسه بتقصيرها في طاعة الله وضرورة تغيّرها: كثرة اطّلاعه على أقوال وأحوال السلف وكذا مواعظ الواعظين ونصائح الناصحين من العبّاد والصالحين.

وأمّا اليقين بأنّ سبيل الصلاح والهداية والتغيير هو في الدعاء فيكفي للدلالة عليه قوله تعالى فيما أخبر به عن عبده زكريا ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (مريم: ٤)، فلا يشقى المؤمن مع الدعاء أبدًا.

فَصْلٌ

وهذه باقةٌ من النصائح والمواعظ عسى أن تكون سببًا في إقناع النفس بتقصيرها:

قل للمُفرِّط يستعدّ ... ما من ورود الموت بُدُّ
قد أخلق الدهر الشبا ... بَ وما مضى لا يُستردُّ
أو ما يخاف أخو المعا ... صي مَنْ له البطشُ الأشدُّ
يومًا يُعاين موقفًا ... فيه خُطوبٌ لا تُحدُّ
فإلام يشتغل الفتى ... في لهوه والأمر جدُّ
أبدًا مواعيدُ الزما ... ن لأهله تعبٌ وكدُّ
يا من يؤمِّل أن يقيم ... بها وحادي الموت يحدو
أتختال في ثوب النعيم ... ودونك قبرٌ ولحدُ

يقـول ابـن الجـوزي[١]: يا حاملاً مـن الدنيا أثقالاً ثقـالاً، يا مطمئنًا لابـدّ أن تنتقل انتقالًا، يا مرسـلًا عنان لهوه في ميدان زهوه إرسالًا، كأنك بجفنيك حين عَرْض الكتاب عليك قد سالا.

۞ أين المعترف بما جناه، أين المعتذر إلى مولاه، أين التائب من خطاياه، أين الآيب من سـفر هـواه؟! نيران الاعتراف تأكل خطايا الاقـتراف، مجانيق الزفرات تهدم حصون السيئات، مياه الحسرات تغسل أنجاس الخطيئات.

۞ يـا طالـب النجاة دُمْ على قَرْع الباب، وزاحم أهل التقى أولي الألباب، ولا تبرح وإن لم يُفتح فرُبَّ نجاحٍ بعد اليأس، ورُبَّ غنىً بعد الإفلاس.

۞ يا من يرجو الثواب بغير عمل، ويُرجئ التوبة بطول الأمل، أتقول في الدنيا قول الزاهديـن وتعمـل فيها عمل الراغبـين، لا بقليل منها تقنع، ولا بكثيرٍ منها تشـبع، تكره الموت لأجل ذنوبك وتقيم على ما تكره الموت له، تغلبك نفسـك على ما تظنّ ولا تغلبها عـلى ما تسـتيقن، لا تثق من الرزق بما ضُمن لـك، ولا تعمل من العمل ما فُرض عليك، تستكثر من معصية غيرك ما تحقره من نفسك.

۞ طوبى لمن تنبه من رقاده، وبكى على ماضي فساده، وخرج من دائرة المعاصي إلى دائرة سـداده، عساه يمحو بصحيح اعترافه قبيح اقترافه، قبل أن يقول فلا ينفع، ويعتذر فلا يُسمع.

۞ يـا مضيع الزمان فيما ينقـص الإيمان، يا معرضًا عن الأرباح متعرضًا للخسران، متى تنتبه من رقادك أيها الوسنان، متى تفيق لنفسك؟ أما حق أما آن؟

۞ إلام ترفض قول الناصح وقد أتاك بأمرٍ واضح، أترضى بالشـين والقبائح، كأنّي بك قد نقلت إلى بطون الصفائح، وبقيت محبوسًا تحت تلك الضرائح، وخُتم الكتاب على آفاتٍ وقبائح.

---

(١) هذا الجزء منقولٌ من كلام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه القيِّم (التبصرة).

لله درّ أقوامٍ تركوا الدنيا فأصابوا، وسمعوا منادِيَ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ (يُونُسَ: ٢٥)، فأجابوا، وحضروا مشاهد التقى فما غابوا، واعتذروا مع التحقيق ثمّ تابوا، وقصدوا باب مولاهم فما رُدوا ولا خابوا.

قد قلتُ للنفس وبالغتُ ... وزدتُ في العَتْبِ وأكثرت
يا نفس قد قصَّرتِ ما قد كفى ... تيقظي قد قرب الوقتُ
جِدِّي عسى أن تدركي ما مضى ... قد سبق الناس وخُلِّفتُ
أنا الذي قد قلتُ دهرًا غدًا ... أتوب من ذنبي فما تبتُ
لو كنتُ ذا عقلٍ لَمَا حلّ بي ... نحتُ على نفسي ما عشتُ
واحسرتي يوم حسابي إذا ... وقفتُ للعرض وحُوسبتُ
واخجلتي إن قيل لي قد مضى ... وقتُك تفريطًا ووُبِّختُ
ولي كتابٌ ناطقٌ بالذي ... قد كنتُ في دنياي قدَّمتُ

۞ يا مَنْ بين يديه يومٌ لا شك فيه ولا مِرَا، تدبر أمرك قبل أن تحضر فترى، وانظر لنفسك نظر من قد فهم ما جرى، قبل أن يغضب الحاكم والحاكم رب الورى ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ (آل عمران: ٣٠).

۞ يومٌ تشيب فيه الأطفال، يومٌ تسير فيه الجبال، يومٌ يظهر فيه الوبال، يومٌ تنطق فيه الأعضاء بالخصال، يومٌ لا تُقال فيه الأعذار.

۞ يُنصب الصراط فناجٍ وواقع، ويوضع الميزان فتكثر الفظائع، وتُنشر الكتب وتسيل المدامع، وتظهر القبائح بين تلك المجامع، ويؤلم العقاب وتُملَى المسامع، ويخسر العاصي ويربح الطائع.

۞ يـا كثير السـيئات غدًا ترى عملك، يا هاتك الحرمـات، إلى متى تديم ذلك، أما تعلم أنّ الموت يسعى في تبديد شملك، أما تخاف أن تؤخذ على قبيح فعلك، واعجبًا لك مـن راحل تركـت الزاد في غير رحلك، أين فطنتك ويقظتـك وتدبير عقلك، أما بارزت بالقبيـح فأيـن الحَزَن، أما علمت أنّ الحق يعلم السّر والعلن، سـتعرف خبرك يوم ترحل عن الوطن، وستنتبه من رقادك ويزول هذا الوسن!

فَصْلٌ

يقول د/ خالد أبو شادي مبينًا كون الدعاء هو سبيل الصلاح والتغيير: «أيها المريض (أي: العـاصي)... اسـتعن بالله على مرضك، اطلب نصره على هـواك، لا تدخل المعركة وحـدك، كيف وأنت معك المـدد كلّه... معك القوة التي لا تُغلب... أحسـن الكلام في الشكوى سؤال المولى... ولا يدفع أمواج البلاء سوى صيحات الدعاء.

واظـب عـلى التـضرع والبـكاء... اسـتعن بأرحـم الراحمـين... اشـكُ إلى أكـرم الأكرمين... أدمن الاسـتغاثة... لا تمل طول الشـكاية، فإنّ مصيبتـك عظيمة، وبليتك طمّت، وتماديك طال، وداؤك أعيا، حتى انقطعت حيل الأطباء، وراحت كل محاولاتهم معـك سُـدىً، ولم يعـد لك مطلب ولا مسـتغاث ولا مهرب ولا ملجـأ ولا منجا إلّا إلى مولاك، فافزع إليه بالتضرع، واخشع على قدر جرمك وهول ذنبك... وقل:

يـا ملك الملوك أقـل عثـاري ... فـإني عنـك أقصتني الذنوبُ

وأمرضني الهوى لضلال نفسي ... ولـكن لـيس غـيرك لـي طبيبُ

يـا ديّـان يـوم الديـن فـرّجْ ... همومًا فـي الفـؤاد لها لهيبُ

انتهى كلامه بتصرف يسير

وقد روى الإمام أحمد في كتاب الزهد عن مطرِّف بن الشخير أنّه قال: «تذاكرتُ ما جماع الخير فإذا الخير كثير: الصوم والصلاة.... وإذا هو في يد الله عزّ وجل، وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله عزّ وجلّ إلّا أن تسأله فيعطيك، فإذا جماع الخير: الدعاء».

إخواني... لا سبيل إلى صلاحكم إلّا باليأس من نفوسكم والثقة بربكم... ولا سبيل إلى نجاتكم إلّا بشعوركم بالضعف الكامل من قِبَل أنفسكم، وبالقوة الكاملة من قِبل ربكم.

وقد أحسن مَنْ قال: «تحقَّق بأوصافك يمدّك بأوصافه، تحقَّق بذُلِّك يُمِدّك بعزّة، تحقَّق بعجزك يُمدَّك بقدرته، تحقَّق بضعفك يُمدّك بحوله وقوته».

ومَنْ قال: «ما توقف مطلبٌ أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلبٌ أنت طالبه بنفسك»، ورحم الله أحد الصالحين حيث كان يردد دائمًا: «عجزي كنزي، وحجّتي حاجتي، وعُدَّتي فاقتي، فارحمني يا إلهي» وصلّى الله وسلّم على نبيه ورسوله محمّدٍ القائل: «**اللهمّ رحمتك أرجو فلا تكلني لنفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كلّه، لا إله إلا أنت**» (رواه أحمد وأبو داود وحسنه الألباني)، والقائل: «**وأشهد أنّك إن تكلني لنفسي تكلني إلى ضيعةٍ وعورة، وذنبٍ وخطيئة، وإني لا أثق إلّا برحمتك**» (صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب)، ثمّ ضعّفه قبل موته بيسير إلّا أنّ ضعفه ـ إن شاء الله ـ يسيرٌ، ومعناه صحيحٌ.

السبب الثالث- الحياء من الله:

فإنّ العبد إذا علم بسوء حاله مع الله، وكيف أنّه تجرأ على المخالفة مع أنّ نعم الله عليه تترى، تولَّد في قلبه الحياء من الله، ولابدّ، وحينئذٍ يكون سؤاله ودعاؤه بتضرعٍ وذُلٍّ وانكسار، وحَريٌّ بمن هذا حالُه أن يُستجاب له فضلًا عمّا يجده من حلاوة الدعاء ولذته.

فائدة [1]:

قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحياء رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تُسمَّى الحياء، وحقيقته خُلُقٌ يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق».

وعن يوسف بن الحسين قال سمعت ذا النون يقول: «لله عبادٌ تركوا الذنب استحياءً من كرمه بعد أن تركوه خوفًا من عقوبته، ولو قال لك: «اعمل ما شئت، فلست آخذك بذنب»؛ كان ينبغي لك أن يزيدَك كرمُه استحياءً منه، وتركًا لمعصيته إن كنت حرًّا كريمًا عبدًا شكورًا، فكيف وقد حذرك؟!

وعن **محمّد بن الفضل** قال: «الحياء يتولد من النظر إلى إحسان المحسن، ثمّ من النظر إلى جفائك إلى المحسن، فإذا كنت كذلك؛ رُزِقتَ الحياءَ إن شاء الله».

قال الشاعر:

هَبِ البعثَ لم تأتنا رسلهُ ... وجاحِمةَ النارِ لم تُضْرَمِ

أليس مِن الواجب المستحَق ... حياءُ العبادِ من المنعمِ

وقال آخر:

تائبٌ تجري دموعي ندمًا ... يا لقلبي من دموع الندمِ

ليتني ذُبْتُ حياءً كلّما ... جدَّد العفوُ عطاءَ المنعمِ

فإذا تولد الحياءُ في القلب، كان الذلُّ والانكسار اللذان لا تكاد تتخلف عنهما حلاوة الدعاء.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مبينًا أثر الذل والانكسار بين يدي الله في قبول العبد عند ربه**: «دخلتُ على الله من أبواب الطاعات كلّها، فما دخلتُ من بابٍ إلّا رأيتُ عليه

---

(١) هذه الفائدة منقولة باختصار من كتاب «فقه الحياء» للشيخ/ محمد بن إسماعيل.

الزحام، فلم أتمكن من الدخول حتى جئتُ باب الذل والافتقار، فإذا هو أقربُ بابٍ إليه وأوسعه، ولا مُزاحم فيه ولا معوِّق، فما هو إلّا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه».

ويقول د/ خالد أبو شادي أكرمه الله: «أخي... راية الفقراء فارفع، ودلائل العجز والتفريط جهِّز، وصحائف الذنب قدِّم، والساعات الضائعة من عمرك واللهو في زمن الصبا، كل هذا طلِّق، فكم أتعبت الحفظة سنين، وسهرت في المعاصي حينًا بعد حين، أظهِر الفاقة والمسكنة حتى تكون ممّن يستحق الصدقة، ألم تقرأ قول ربك: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ (التَّوبَة: ٦٠).

فمن ادّعى حياءً من الله على ما سلف من تقصير، ولم يكن في قلبه ذلٌّ ولا انكسارٌ فهو كاذبٌ في دعواه!!

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا نادمًا على الذنوب أين أثرُ ندمك، أين بكاؤك على زلةِ قدمِك، أين حذرُك من أليم العقاب، أين قلقك من خوف العتاب، أتعتقد أنّ التوبة قولٌ باللسان، إنّما التوبةُ نارٌ تحرق الإنسان، جرِّد قلبك من الأقذار، ثمّ ألبسه الاعتذار، ثمّ حَله حُلة الانكسار، ثمّ أَقِمْه على باب الدار.

يا هذا... نادِ في نادي الأسحار والناسُ نائمون: يا أكرم من أمَّله الآملون... إن طردتني فإلى مَنْ أذهب، وإن أبعدتني فإليك أُنسَب...

علامة التائب أن تبصره في الأسحار على باب الاعتذار مطروحًا، الانكسار قد علاه والحزن قد وهَاه، يذمّ نفسه على هواه، وبهذا صار ممدوحًا، مطعمه يسير، وحُزنه كثير، فكأنّه أسيرٌ قد رُمِي مجروحًا» انتهى بتصرف من كتاب التبصرة.

إخواني... صدق فينا قول القائل: يا هذا كم تعصي!! أقلبك من حديدٍ أم فولاذ!! أفي الطاعة تلميذ وفي المعاصي أستاذ!!

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا صاحب الخطايا أين الدموع الجارية، يا أسير المعاصي ابك على الذنوب الماضية، يا مبارزًا بالقبائح أتصبر على الهاوية؟! يا ناسيًا ذنوبه والصحف لها حاوية، أسفًا لك إذا جاءك الموت وما أَنَبْت، واحسرةً لك إذ دعيت إلى التوبة فما أجبت، كيف تصنع إذا نودي بالرحيل وما تأهبت، ألست الذي بارزت بالكبائر وما راقبت؟

لله دَرّ أقوامٍ كشف الرحيم لهم حقيقة الدنيا فرأوا عيوبها، وألاح لهم الأخرى فتَلمّحوا غيوبها، وبادروا شمس الحياة يخافون غيوبها، واستغلوا الطاعات فحصَّلوا مرغوبَها، وحثهم الإيمان على الخوف فما يأمنون.

يا غافلًا ما يفيق، يا حاملًا ما لا يطيق، ألست الذي بارزت بالذنوب مولاك، ألست الذي عصيته وهو يرعاك، أسفًا لك ما الذي دهاك حتى بعت هداك بهواك، يا ليت عينك أبصرت ذلّ الخطايا قد علاك!

ويحك يا عبد الله.... تقوم إلى صلاتك وأنت متكاسل، وتدخل في الصلاة بقلبٍ غافل، وتستعجل فيها لأجل العاجل، وإذا نظرت بعدها إلى الحاصل: فالجسد أقبل والقلبُ أدبر.

ويحك يا ابن آدم... تفرِّق الهمومَ والمقصودُ واحد... إن لاحت الدنيا فشيطانٌ مارد، تقاتلُ عليها فتكرّ وتطارد، فإذا جاءت الصلاة فقلبٌ غائبٌ وجسدٌ شاهد، وتقولُ: قد صليت أتبهرج على الناقد، ما تعرف ربك إلّا في أوقات الشدائد.

يـا من إذا صلّى خفَّـف، وإذا كال طفَّف، وإذا دُعي إلى الطاعـة تخلَّف، وإذا قيل له تُبْ سوَّف، ما يؤثِّر عنده قول من حذَّر وخوَّف، ثمّ يطمع في لحاق الصالحين فما أنصف، جدَّ القومُ و أنت قاعد، وقربُوا وأنت متباعد.

يـا مـن يرجو مقام الصالحين، وهـو مقيمٌ مع الغافلين، ويأمل منـازل المقربين وهو ينزل مع المذنبين، دَعْ هذا الواقع، الصدقَ الصدقَ فيه تَسـلمْ، الجِدَّ الجِدَّ فيه تغنمْ، البِدارَ البِدارَ قبل أن تندم، هذا هو الدواء النافع» (انتهى من كتاب التبصرة).

السبب الرابع- اليقين في الإجابة:

وفي الحديـث: «ادعـوا الله وأنتم موقنـون بالإجابة» (رواه الترمـذي وصححه الألباني في صحيح الجامع)، ويتجلّى أثر اليقين في تذوق العبد لحلاوة الدعاء فيما يستشـعره المرء في دعائه في الحج والعمرة، فإنّه يجد حلاوةً خاصةً ولذةً غير معتادة، ومن أكبر أسبابها يقينه ورجـاؤه في إجابـة الله لدعائه، وكيف لا يسـتجيب اللهُ الدعاء ـ طالما أتى العبد بأسـباب الإجابـة وتـخـلّى من موانعهـا ـ وقد وعـد فقـال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غَافِر: ٦٠)، وقـال ﷺ لأحد أصحابه: «**ادع ربك الذي إن أمسّـك ضرّ فدعوته كشف عنك، والذي إن أضلّك بأرضٍ فلاةٍ قفرٍ فدعوته ردّ عليك، والذي إن أصابتك سَنَةٌ فدعوته اسـتجاب لك**» (رواه أحمد وأبو داود وصححـه الألباني)، وقـال ﷺ أيضًا: «**مـا مـن أحدٍ يدعو بدعاءٍ إلّا آتاه الله ما سـأل أو كفّ عنه من السـوء مثله، مالم يدع بإثمٍ أو قطيعة رحم**» (رواه الترمذي وحسنه الألباني).

وقـد تنوعـت عبـارات السـلف ـ رحمهـم الله ـ في التعبـير عـن يقينهـم بإجابـة الله للدعاء:

قال يحيى بن معاذ: «يا من يغضب على من لا يسأله لا تمنع من قد سألك».

وقال بعض السلف: «دعوتُ الله منذ عشرين سنةٍ في حاجة وما أجابني وأنا أرجو الإجابة».

وقال آخر: «متى أطلق لسانك بالدعاء فاعلم أنّه يريد أن يعطيك».

وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنّه قال**: «إنّي لا أحمل همّ الإجابة ولكنّي أحمل همّ الدعاء، فمتى رزقتُ الدعاء فإنّ الإجابة معه».

وعن بعض السلف أنّه كان يقول: «يا من لا تضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، اغفر لي ما لا يضرك، وأعطني ما لا ينقصك، إنّك أنت الوهاب».

وقال آخر: «يا مَنْ أعطانا خيرَ ما في خزائنه، وهو الإيمانُ قبل السؤال، لا تمنعنا أوسعَ ما في خزائنك، وهو العفوُ مع السؤال».

وقال آخر: «يا محسنًا إليَّ قبل أن أطلب، لا تخيِّب أملي فيك وأنا أطلب».

قلتُ: ومَنْ وثق في الله وفي كرمه فوَّض أمره إلى الله، وعلم أنّ في المنع عطاءً وإن خفي.

قال شيبان الراعي لسفيان الثوري: «يا سفيان، عُدّ منع الله إيّاك عطاءً منه لك، فإنّه لم يمنعك بخلًا إنّما منعك لطفًا».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقضاؤه لعبده المؤمن المنع عطاء، وإن كان في صورة المنع، ومحنته نعمة وإن كانت في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يُعدُّ العطاء والنعمة والعافية إلّا ما التذَّ به في العاجل، وكان ملائمًا لطبعه».

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإياك أن تستطيل مدة الإجابة، وكن ناظرًا إلى أنّه المالك، وإلى أنّه الحكيم في التدبير، والعالم بالمصالح، وإلى أنه يريد اختبارك ليبلو أسرارك،

obeikandl.com

وإلى أنّه يريد أن يرى تضرعك، وإلى أنّه يريد أن يأجرك بصبرك، إلى غير ذلك، وإلى أنّه يبتليك بالتأخير لتحارب وسوسة إبليس (يعني: في تشكيكه للعبد وبثّه اليأس في قلبه)، وكلّ واحدةٍ من هذه الأشياء تقوِّي الظنّ في فضله، وتوجب الشكر له، إذ أهّلك بالبلاء للالتفات إلى سؤاله، وفقر المضطر إلى اللجأ إليه غنىً كله».

فَصْلٌ

وهذه باقة من أسباب وموانع إجابة الدعاء:

قال رسول الله ﷺ: «**من سَرَّه أن يستجيب اللهُ له عند الشدائد والكَرْب، فليُكثر الدعاءَ في الرخاء**» (رواه الترمذي وحسنه الألباني).

وقال أيضًا ﷺ: «**ما من أحدٍ يدعو بدعاءٍ إلّا آتاه الله ما سأل، أو كَفّ عنه من السوء مِثْله، مالم يدع بإثمٍ أو قطيعة رحم**» (رواه الترمذي وحسنه الألباني).

وقال أيضًا ﷺ: «**ما من عبدٍ مسلمٍ يدعو لأخيه بظهر الغيب إلّا قال الملك: آمين، ولك بمثل**» (رواه مسلم).

وقال أيضًا ﷺ: «**يُستجاب لأحدكم مالم يَعْجل، يقول: قد دعوتُ فلم أر يستجيبُ لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء**» (رواه البخاري ومسلم).

وقال أيضًا ﷺ: «**واعلموا أنّ الله لا يستجيب الدعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ**». (رواه الترمذي وحسنه الألباني)

وقال أيضًا ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لتأمُرُنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثمّ تدعونه؛ فلا يُستجاب لكم**».

(رواه الترمذي وحسنه الألباني)

obeikandl.com

وقال أيضًا ﷺ: «**لا يقولنّ أحدكم: اللهمّ اغفر لي إن شئت، اللهمّ ارحمني إن شئت، ليعزِم المسألة، فإنّه لا مُكْرِه له**».

وذكر ﷺ: «**الرجلَ يطيل السفر، أشعث أغبرَ، يمدّ يديه إلى السماء يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام؛ فأنّى يُستجاب لذلك**» (رواه مسلم).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنّ الدعاء موقوفٌ بين السماء والأرض لا يصعدُ منه شيءٌ حتى تصلّي على نبيك ﷺ».
(رواه الترمذي وحسنه الألباني موقوفًا)

وقال ﷺ: «**ألِظُّوا بياذا الجلال والإكرام**».
(رواه الترمذي وصححه الألباني)

وقال ﷺ لمن سمعه يدعو: «**اللهمّ إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلّا أنت، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلدْ، ولم يولدْ، ولم يكن له كفوًا أحد؛ فقال: «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سئل به أعطى**» (رواه أبو داود والترمذي وحسنه الألباني).

وقال ﷺ: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾** (البقرة:١٦٣)، وفاتحة آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ (آل عمران:١، ٢)»».

وسمع رسول الله ﷺ رجلًا يدعو ويقول: اللهمّ إني أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك، المنّانُ، الحنّانُ، بديعُ السماوات والأرض، ياذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيوم؛ فقال: «**لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**».
(رواه أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني)

obeikandl.com

وقال ﷺ: «**دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت؛ لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنتُ من الظالمين، لم يَدْعُ بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطُّ إلّا استجاب الله له**» (رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه الألباني).

وسمع ﷺ مصليًا يدعو قبل أن يحمد الله ويصلّي على نبيه فقال: «**عجلت أيها المصلي! إذا صليتَ فقعدتَ فاحمدِ الله بما هو أهله ثمّ صلِّ عليّ، ثمّ ادعه**».
(رواه الترمذي وصححه الألباني)

وقال ﷺ: «**ثلاث دعواتٍ لا تُردُّ: دعوة الوالد، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر**» (السلسلة الصحيحة برقم: ١٧٩٧).

وقال ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يُردُّ دعاؤهم: الذاكر الله كثيرًا، ودعوة المظلوم، والإمام المقسط**» (السلسلة الصحيحة برقم: ١٢١١).

وقال ﷺ: «**إذا نودي بالصلاة فتحت أبواب السماء واستجيب الدعاء**».
(السلسلة الصحيحة برقم: ١٤١٣)

وقال ﷺ: «**اطلبوا إجابة الدعاء عند التقاء الجيوش، ونزول المطر**».
(السلسلة الصحيحة برقم: ١٤٦٩)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّه قال: «الدعاء يرفعه العمل الصالح».

وقال بعض السلف: «الدعاء بلا عملٍ كالقوس بلا وتر».

وقال آخر: «يكفي من الدعاء اليسير مع العمل الصالح كما يكفي الطعامَ يسيرُ الملح».

وقال بعض الحكماء: «لا تطالب ربك بتأخر مطلبك، ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك».

obeikandl.com

قلتُ: ومن هذه الآداب غير ما ذكرنا: الوضوء واستقبال القبلة ورفع اليدين حيث شُرع، فقد صحّ عن نبينا أنّه أراد الوضوء فتوضأ واستقبل القبلة ورفع يديه يدعو».

وكذا خفض الصوت لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ (الأعراف: ٥٥).

وكذا ترك السجع المتكلَّف فقد أورد البخاري عن ابن عباس أنّه قال لعكرمة: «فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدتُ رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلّا ذلك» أي: الاجتناب.

تنبيه: لا يشرع رفع اليدين في الدعاء للخطيب يوم الجمعة لورود النهي عن ذلك كما في صحيح مسلم، وكذا المستمع للخطبة لعدم وروده عن صحابة رسول الله ﷺ ولا التابعين لهم بإحسان.

فائدة:

من المناسب لكلامنا عن اليقين في إجابة الله للدعاء أن ننبه على ضرورة تفويض العبد أمره كلّه إلى الله، فربما دعا بما يراه خيرًا، ولكنّ الله يعلم أنّ الخير في خلاف ذلك، فعلى العبد أن يرضى بقضاء الله واختياره وقد علّمنا ﷺ ذلك في دعائه المشهور: «**اللهمّ بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفّني إذا علمت الوفاة خيرًا لي**» (رواه النسائي وصححه الألباني).

وعن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه أنّه قال: «ما أبالي على أيّ حالٍ أصبحت أعلى ما أحبُّ أم على ما أكره». يعني أنّه لا يدري أين يكون الخير.

وعن **عمر بن عبد العزيز** أنّه قال: «أصبحتُ ألتمس رضايَ في مواضع القدر».

وقال الشاعر:

لا تكره المكروه عند نزوله ... إنّ الحوادث لم تزل متباينة

كم نعمةٍ لا يُستهان بشكرها ... لله في طيّ المكاره كامنة

وحكى د/ خالد أبو شادي حَفِظَهُ اللهُ: عن رجلٍ أنه حُبس في السجن ظلمًا وكان من قواد الجيش في إحدى البلاد، فدخلت بلده معركةٌ أبيد فيها كل أفراد فرقته بالكامل، فحمد الله الذي حفظه في السجن وحماه من موتٍ محقق.

وحكى أيضًا عن رجلٍ تأخر عن موعد حافلةٍ ففاته ركوبها، فتحسر أشدّ الحسرة لفوات موعدٍ هام، فلما ركب الحافلة التي تليها وجد الحافلة الأولى غارقةً في النيل وقد هلك جميع ركابها، فعرف معنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ (البَقَرَة: ٢١٦).

السبب الخامس- جمع القلب على الدعاء:

إنّ جمع القلب على الدعاء والصدق فيه من أكبر أسباب تحصيل حلاوته؛ ولذا تجد العبد إذا داوم على وقتٍ معينٍ يدعو فيه بصدقٍ وحضور قلبٍ ـ ولو كان وقتًا يسيرًا ـ يحصِّل من الخير والحلاوة ما لا يحصِّله من يدعو ـ ولو في أوقاتٍ كثيرة ـ دون جمعٍ للقلب وإقبالٍ به على الدعاء، وقد أدرك السلف هذه الحقيقة حتى قال يحيى بن معاذ: «مَن جمع الله عليه قلبه في الدعاء لم يردّه».

وحقيقة جمع القلب في الدعاء هي إقبال القلب ونشاط النفس مع التضرع والتدبر فحينئذٍ تتولد الدمعة وينشأ الوجل، فلا يكاد يُردّ الدعاء.

وقد عبّر ثابت البناني رَحِمَهُ اللَّهُ عن ذلك فقال: «إذا وجل قلبي، واقشعر جلدي، وفاضت عيناي، وفتح لي في الدعاء فثَمَّ أعلم أن قد استجيب لي».

وأفضل وقتٍ لجمع القلب على الدعاء وقتُ السحر حيث السكون والهدوء وحيث يتنزل الرب إلى السماء الدنيا فيقول: «**هل من داعٍ فأستجيب له، هل من مستغفرٍ فأغفر له، هل من تائبٍ فأتوب عليه**» كما صحّ بذلك أحاديث كثيرة.

وكذا ساعة الجمعة فإنّها متيسرة ـ بفضل الله ـ لكثيرٍ من الناس؛ فهو يوم الفراغ من العمل، وفي النهار بعد العصر وقبل المغرب في وقتٍ لا يكاد ينام فيه أحد بخلاف وقت السحر، وفي الحديث: «**إنّ في الجمعة لساعةً لا يوافقها عبدٌ مسلم قائمٌ يصلي يسأل الله فيها خيرًا إلّا أعطاه إياه**» (رواه مسلم).

وفي آخر: «**التمسوا الساعة التي تُرجى في يوم الجمعة بعد صلاة العصر إلى غيبوبة الشمس**» (رواه الترمذي وحسنه الألباني)، وفي رواية لابن ماجه: «**هي آخر ساعات النهار**».

والراجح أنّها جزءٌ من هذه الساعة وليست الساعة كلها لرواية فقال ﷺ: «**أو بعض ساعة**» وهي عند ابن ماجه بسندٍ صحيح، وكذا رواية البخاري ومسلم «وأشار بيده يقلِّلها».

طريقة حسابها:

في الحديث: «**يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة**» (رواه أبو داود والنسائي وصححه الألباني)، ومعناه أنّ في الجمعة اثنتي عشرة ساعة شرعية، فإذا قسمنا عدد الساعات ما بين أذان الفجر الصادق إلى المغرب على ١٢ كان الناتج هو مقدار الساعة الشرعية الذي قد يكون ساعة وعشر دقائق أو ساعة وخمس دقائق من ساعات الناس اليوم على حسب قصر النهار وطوله، فيكون ما قبل المغرب بهذا المقدار هو ساعة الإجابة، وفيها وقتٌ ـ الله أعلم بقدره ـ يُستجاب فيه الدعاء، فمن دعا فيها كلّها ضمن إصابة هذا الوقت، فإن قيل: لا صلاة في هذه الساعة، وفي رواية مسلم: «**قائمٌ يصلّي**»؟ قلتُ: المقصود من قوله «قائمٌ» أي مقيمٌ كقوله تعالى: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا**﴾ (آل عمران: ٧٥)، أي: مقيمًا على مطالبته، والمقصود من قوله: «يصلي» أي: يدعو أو ينتظر الصلاة، ففي رواية ابن ماجه قلتُ: إنها

ليست ساعة صلاة؟ قال: «**بلى إنّ العبد إذا صلّى، ثمّ جلس لم يجلسه إلّا الصلاة فهو في صلاة**» والظاهر ـ والله أعلم ـ أنّ السائل هو أبو هريرة والمسئول هو عبد الله بن سلام ـ راوي الحديث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما وردت بذلك رواية أخرى.

فالأكمل أن يكون الداعي في المسجد في هذه الساعة، ولا يمنع ذلك من استجابة الدعاء لمن دعا في هذه الساعة في بيته لعموم الروايات الأخرى.

فمن داوم على الدعاء في هذه الساعة بأدعية الكتاب والسُّنّة الصحيحة ملتزمًا آداب الدعاء التي ذكرناها ذاق حلاوةً عجيبةً ورُزق البركة والهداية ـ بإذن الله ـ.

وكذا الدعاء في السجود وبين السجدتين ولكن بقلبٍ يستشعر التقصير في حق ربه، ويطلب الصفح والعفو، فإنّ ذلك من أكبر أسباب تحصيل حلاوة الدعاء، والخشوع في الصلاة.

وكذا الدعاء في الحج والعمرة أثناء الطواف وفي السعي؛ فإنّهما يجتمع فيهما جمعية القلب وقوة رجاء الإجابة معًا؛ فيحصِّل العبد من الحلاوة مالا يعلمه إلّا الله.

فَصْلٌ

ويرتبط بجمع القلب على الدعاء أمران هما لازمان لحصول هذه الجمعية وهما:

(أ) إخفاء الدعاء:

أي: حيث لم يرد الإعلان به كدعاء الخطيب يوم الجمعة مثلًا.

فإنّ إخفاء الدعاء دليلٌ على الصدق والإخلاص والبعد عن طلب رؤية الناس ومدحهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:**

أحدها- أنّه أعظم إيمانًا لأنّ صاحبه يعلم أنّ الله تعالى يسمع دعاءه الخفي.

ثانيها- أنّه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تخاطَب الملوك ولا تُسأل برفع الأصوات، بل بخفض الصوت، ومن رفع الصوت عندهم مقتوه، ولله المثل الأعلى.

ثالثها- أنّه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبّه ومقصوده، فإنّ الخاشع الذليل الضارع إنّما يسأل مسألةَ مسكينٍ ذليلٍ قد انكسر قلبه وذلت جوارحه وخشع صوته، حتى إنّه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسرته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوله بالنطق.

رابعها- أنّه أبلغ في الإخلاص.

خامسها- أنّه أبلغ في جمعية القلب على الله تعالى في الدعاء؛ فإنّ رفع الصوت يفرِّقه ويشتته.

سادسها- أنّه دالٌ على قرب صاحبه من الله، وأنّه لقربه منه وشدة حضوره يسأله مسألةَ أقرب شيءٍ إليه، فيسأله مسألة مناجاة للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد.

سابعها- أنّه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال؛ فإنّ اللسان لا يملّ والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته؛ فإنّه قد يكِلُّ لسانُه وتضعف بعض قواه.

ثامنها- أنّ إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوِّشات والمضعفات؛ فإنّ الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد، فلا يحصل هناك تشويشٌ ولا غيره.

تاسعها- أنّ أعظم النعم الإقبال على الله والتعبد له والانقطاع إليه والتبتل إليه، ولكل نعمةٍ حاسدٌ على قدرها، دقَّت أو جلَّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فليس للمرء أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وألّا يقصد إظهارها له، وكم من صاحب قلبٍ وحالٍ مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إيّاها الأغيار؛ ولذا يوصي العارفون

بحفظ السر مع الله، وألّا يطلعوا عليه أحدًا، ويتكتمون به غاية التكتم، ولا سيما للمبتدئ والسالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه؛ بحيث لا يُخشى عليه من العواصف، فإنّه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليُقتدى به ويؤتَمَّ به لم يبالِ.

عاشرها- أنّ الدعاء هو ذكرٌ للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وصفاته فهو ذكرٌ وزيادة (**قلتُ**: يقصد أنّ الله أمر في كتابه فقال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ (الأعراف: ٢٠٥)» (انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بدائع الفوائد بتصرفٍ).

(ب) عدم طلب الدنيا صراحةً بل تُطلب إجمالًا ومن أجل حظّ الآخرة:

فإنّ طلب القلب للدنيا يشتته ويفرّق جمعيته على الله، فهي دارُ شتات بخلاف طلب حظ الآخرة من تقوى وإيمان ومغفرة وجنّةٍ ورضوان؛ فإنّ ذلك يجمع القلب على الله، وقد درج على ذلك الأنبياء ثمّ من بعدهم الصالحون؛ فتأمّل قول موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لمّا سقى للمرأتين وكان جائعًا فقيرًا من المال، فقال كما أخبر القرآن: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ (القصص: ٢٤)، ولم يقل: «يا رب ارزقني بمال أو طعام».

وأرسل النبي ﷺ إلى أزواجه يبتغي طعامًا لضيف، فلم يجد عند واحدةٍ منهنّ طعامًا فقال: «**اللهمّ إنّي أسألك من فضلك ورحمتك؛ فإنّه لا يملكها إلّا أنت**» فأُهديت إليه شاةٌ مَصْليّة، فقال: «**هذه من فضل الله، ونحن ننتظر الرحمة**» (رواه الطبراني وصححه الألباني)، ولم يقل: «اللهمّ أطعمنا أو ارزقنا بمال» بل طلب الدنيا إجمالًا.

وكذا عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لمّا سأله الحواريون أن ينزل المائدة ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (المائدة: ١١٢-١١٤)، فانظر كيف بدأوا ـ لنقص إيمانهم ـ في ذكر أغراض المائدة بالأكل، وصرّحوا به ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ وأمّا الغرض الديني فجعلوه آخرًا فقالوا ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ فلما دعا هو ﷺ بدأ بطلب الغرض الديني وطلب الغرض الدنيوي على سبيل الإجمال لا التفصيل، فقال: ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ﴾ وأمّا الغرض الدنيوي ﴿ وَٱرْزُقْنَا ﴾ ولم يقل: «وأطعمنا».

فمن أراد حظًا من الدنيا ليستعين به على أمر الآخرة، فلا يطلبه تصريحًا بل يطلبه إجمالًا، فمن أراد زوجةً أو عملًا يتكسب منه ليعفّ نفسه، أو طعامًا لم يقل: «اللهمّ زوِّجني»، «أطعمني» بل يقول: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» وينوي بحسنة الدنيا ما أراده، والله أعلم بما في القلوب، وهذا من كمال الأدب مع الله، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**اللهمّ ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**» فكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوةٍ دعا بها، وإذا أراد أن يدعو بدعاءٍ دعا بها فيها. (رواه مسلم)، وإذا كان الدعاء بتفاصيل الآخرة اعتداء في الدنيا، فالدعاء بتفاصيل الدنيا أولى كما روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص الذي دخل على ابنه وهو يدعو فيقول: «اللهمّ إني أسأل الجنّة ونعيمها وبهجتها وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: يا بني سمعتُ النبي ﷺ يقول: «**سيكون أقوامٌ يعتدون في الدعاء، إن أعطيتَ الجنة أعطيتها وما فيها من الخير، وإن أُعذتَ من النار أعذتَ منها وما فيها من الشر**» (صححه الألباني).

تنبيه: قلب العارف العالم بالله ـ في أغلب أحيانه ـ مقبلٌ على ربه متعلِّقٌ به، فلا يملّ ولو دعا مثنيًا على ربه الساعات الطوال، ولا يكلّ من سؤال العفو والمغفرة والرضا

والقبول، بخلاف المبتدئ؛ ولذا يُنصح المبتدئ بتخصيص أوقاتٍ ـ وردت بها السُّنّة كالسَّحر، وساعة الجمعة ـ يتفرغ فيها للدعاء ليجمع قلبه على الله قدر الإمكان، ومع المداومة يذوق العبدُ حلاوةَ الدعاء، ويزداد إيمانه، فلا يملّ ولا يكلّ إلّا ما لابد منه بمقتضى طبيعة البشر، وقد تضاءل ذلك في حق سيد البشر ﷺ حتى كان كالغين اليسير ومع ذلك قال: «**إنّه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**».

السبب السادس- إدمان الدعاء والإلحاح فيه:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومثل من ترك الدعاء واستحسر كمثل من بذر بذرًا أو غرس غرسًا فجعل يتعاهده ويسقيه، فلمّا استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله» (انظر الجواب الكافي)، وقال أيضًا في كتاب الفوائد: «لا تسأم الوقوف على الباب ولو طُرِدت، ولا تقطع الاعتذار ولو رُدِدت، فإن فُتح الباب للمقبولين دونك، فاهجم هجوم الكذابين، وادخل دخول الطفيلية، وابسط كفَّ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ (يُوسُفُ:٨٨)».

وقال صالحٌ المريّ: «من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له».

وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك الإلحاح والإكثار فقال: «**ألِظُّوا بياذا الجلال والإكرام**»، ووضح ذلك عمليًا في الحج حيث «مالت به ناقته فسقط خطامها، فتناول الخطام بإحدى يديه، وهو رافعٌ يده الأخرى» (رواه النسائي وصححه الألباني)، فلم يترك الدعاء ولو لحظة، وأخبر عنه جابر فقال: «واستقبل القبلة فلم يزل واقفًا يدعو بعرفة حتى غربت الشمس» (رواه أبو داود وابن ماجه وصححه الألباني).

قلتُ: والمداومة على الدعاء ـ ولو كان قليلًا ـ تنجع في القلب وتورثه الحلاوة، ولو بعد حين، طالما أتى المرء بآداب الدعاء، ومثل ذلك كمثل صنبور للماء فُتح بحيث ينزل منه الماء قطرةً قطرةً؛ فإنّها تنجع في الصخرة إذا دام نزولها، فكيف بأثر الدعاء في القلب!!

السبب السابع- التزام أدعية القرآن والسُّنّة الصحيحة:

ففيها والله من الحلاوة والبهاء ما يعجز عن وصفه الواصفون، فخسر والله المعرضون!!

قال القاضي عياض: «أذن الله في دعائه، وعلّم الدعاء في كتابه، وعلّم النبيُّ الدعاء لأمته، واجتمعت فيه ﷺ: العلم بالتوحيد، والعلم باللغة، والنصيحة للأمة، فلا ينبغي لأحدٍ أن يعدل عن دعائه ﷺ، وقد احتال الشيطان للناس، فقيّض لهم قومَ سوءٍ يخترعون لهم أدعية يشتغلون بها عن دعاء النبي ﷺ، وأشدّ الحال أنّهم ينسبونها إلى الأنبياء والصالحين، فيقولون: «دعاء نوح، دعاء يونس، دعاء أبي بكر الصديق»، فاتقوا الله في أنفسكم، لا تشتغلوا من الحديث إلّا بالصحيح».

وقال الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الطُّرطوشي: «ومن العجب العجاب أن تُعرض عن الدعوات التي ذكرها الله في كتابه عن الأنبياء والأولياء والأصفياء مقرونةً بالإجابة، ثمّ تنتقي ألفاظ الشعراء والكُتّاب كأنك قد دعوتَ في زعمك بجميع دعواتهم ثمّ استعنت بدعوة من سواهم».

وقال شيخ الإسلام: «ففي الأدعية الشرعية، والأذكار الشرعية غاية المطالب الصحيحة، ونهاية المقاصد العلية، ولا يعدل عنها إلى غيرها من الأذكار المبتدعة المحدثة إلّا جاهل أو مفرِّط أو متعدٍّ»، وقال أيضًا: «فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحرِّي من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمانٍ وسلامة، والفوائد التي تحصل بها لا يعبِّر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان» («مجموع الفتاوى» ٢٢/ ٥١٠).

وقد نقل النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الحنفية المنع من الدعاء بغير المأثور عن رسولنا ﷺ إلّا أنّ الجمهور على جوازه».

وقال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن أبَى إلّا الدعاء بغير المأثور تمسكًا بالإباحة، فلابد أن يراعي الضوابط التالية:

۞ أن يتخير من الألفاظ أحسنها وأنبلها وأجملها للمعاني، وأبينها؛ لأنّه مقام مناجاة العبد لربه ومعبوده سبحانه.

۞ أن تكون الألفاظ على وفق المعنى العربي، ومقتضى العلم الإعرابي.

۞ أن يكون خاليًا من أيّ محذورٍ شرعًا: لفظًا أو معنىً.

۞ أن يكون في باب الذكر والدعاء المطلق، لا المقيد بزمانٍ أو حالٍ أو مكان.

۞ أن لا يتخذه سنةً راتبةً يواظب عليها».

(انظر كتاب عودوا إلى خير الهدي للشيخ محمد إسماعيل)

السبب الثامن- التفهم للأدعية القرآنية والنبوية وتدبرها:

وهذا أهمُّ سببٍ وأعظمه ليس فقط لتحصيل حلاوة الدعاء، ولكن كذلك لاستجابته وتحصيل ثماره في القلب؛ فإنّ النبي ﷺ قد أخبر: «**أنّ الله لا يقبل الدعاء عن ظهر قلبٍ غافلٍ**»، والقبول يشمل الاستجابة كما يشمل الإثابة وإيجاد ثماره في قلب الداعي، والمتأمِّل في أدعية القرآن وأدعيته ﷺ يجد فيها تقويمًا للقلب وتهذيبًا للنفس عجيبين، وهذا ـ أعني الدعاء بأدعية الكتاب والسُّنّة مع الإخلاص والتدبر ـ هو طريق صلاح القلوب ومعرفتها وعلمها بربها بأخصر طريقٍ وأبسط وسيلة دون حاجةٍ إلى تجارب شخصية تخطئ وتصيب، بل وتختلف من شخصٍ لآخر.

فبمداومة العبد عليها مع تدبرها يسهل تعلّق القلب بالله وجمعيته عليه والإقبال عليه والإعراض عن شهوات الدنيا المبعدة عنه سبحانه.

obeikandl.com

ويسهل عليه كذلك دوام تذكر الموت والدار الآخرة بما يتضمن ذكر الجنة والنار والبعث والحساب. وعند ذلك يجد العبد زيادةً ملموسةً في أعمال القلوب كلِّها ومعاني الإيمان، فسبحان الله!! كيف كان في هذه الأدعية المباركة العلاج لكثيرٍ من المشاكل التي يعاني منها سالكو طريق الآخرة دون أن تكون حاجةٌ لمزيد بيانٍ أو شرحٍ بل اكتفى الشرع بإيراد هذه الأدعية وحصّلت منها الصحابة كلَّ ذلك، ولكن لابد من التدبر والتفهم والتأمّل، والله المستعان.

فَصْلٌ

تأملات في أدعيةٍ نبوية شريفة:

فيجد السالك لطريق الآخرة التفويض الكامل والتوكل على الله في دعاء النبي ﷺ بعد رفعه من الركوع في الصلاة: «**اللهمّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت**» (رواه مسلم)، فلو أنّ المصلّي في كل صلاة، وفي كلّ ركعة قاله من قلبه، وتفهم معناه فهل يبقى في قلبه حزنٌ أو همٌّ؟؟ وهل يبقى في قلبه خوفٌ أو قلقٌ من مخلوقٍ أو بلاءٍ؟؟؛ ولذا حرص النبي ﷺ على بيان هذا المعنى ـ لأهميته ـ لأصحابه لمّا هزموا يوم أحدٍ فصفَّهم ودعا ربه فقال: «**اللهمّ لك الحمد كلُّه، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هاديَ لما أضللت، ولا مُضلّ لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرِّب لما باعدت، ولا مُبَاعِدَ لما قرَّبت**» (رواه الإمام أحمد وصححه الألباني).

ويجد كذلك الخوف من الله من سوء الخاتمة في قوله ﷺ: «**اللهمّ إني أعوذ بعزَّتك. لا إله إلا أنت. أن تضلني**» (رواه مسلم)، وفيما رواه أنس قال: كان رسول الله ﷺ يكثر من أن يقول: «**يا مقلِّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**» (رواه الترمذي وصححه الألباني).

obeikandl.com

فهل أحدٌ يكثر من هذا الدعاء ويتدبر ما فيه ثمّ لا يخاف قلبه أو ينمحي منه العجب؟؟

إخواني... هذه هي السُّنّة التي زعمتم أنكم تطبقون... هذا هو السبيل فأين السالكون... سأل سائلكم كيف أُرزق الخوف... فهذا طريقه، ولكن أين النازلون... يا ديار الأحباب أين السُّكان.... يا منازل العارفين أين القطان....؟!

ويجد الاعتراف بالتقصير والإزراء بحال النفس مع الله في قوله ﷺ: «**اللهمّ اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهمّ اغفر لي جِدِّي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكُلُّ ذلك عندي**» (رواه البخاري ومسلم).

وفي قوله ﷺ: «**اللهمّ قني شر نفسي**» (رواه الإمام أحمد وصححه الألباني)؛ وقد حرص رسولنا ﷺ على توضيح ذلك الأمر وإقراره في نفوس أصحابه، فكان يقول في خطبة الحاجة في كلّ جمعة كما صحّ عن ابن مسعود رضي الله عنه: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**» فقل لي بالله عليك ـ كيف يكون حالُ قلبٍ من يسمع ذلك على الدوام ويتأمّل معناه؟؟

بل رسَّخ النبي ﷺ الأمر أكثر لمّا سأله أبو بكر ـ وهو الصِّدِّيق ـ عن دعاءٍ يدعو به في صلاته ـ أي: في كل صلاة ـ فقال: «**قل: اللهمّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلّا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنّك أنت الغفور الرحيم**» (رواه البخاري ومسلم).

۞ ثمّ تفكر معي في حال عبدٍ في كل ركعةٍ في صلاته يقول بين السجدتين ـ كما علّمه رسوله ﷺ: «**ربِّ اغفر لي، ربِّ اغفر لي**» وكان يطيل ﷺ في هذه الجلسة حتى كان الصحابة يظنونه قد نسي ﷺ، فهل يداوم على هذه الإطالة

وهذا الاستغفار أحدٌ ثمّ لا يتشرب قلبه الحزن على سيئاته والندم على سالف خطاياه، والاعتراف الحقيقي بتقصيره؟؟

وعلّم ﷺ عائشة ما تقول في ليلة القدر، وهو ـ على ما فهمت ـ تعليمٌ لها بما ينبغي أن يكون عليه حالُ القلب في هذه الليلة، وهو طلب العفو كرمًا من الله وتفضلًا وليس استحقاقًا فقال: «**إذا كان ليلة القدر فقولي: اللهمّ إنّك عفوٌ تحب العفو فاعف عني**» (رواه الترمذي وصححه الألباني)، وقد وردت زيادة «عفوٌّ كريم» (صححها الألباني) ثمّ مال قبل وفاته إلى ضعفها كما في كتاب «تراجع الإمام الألباني» ولكنّ معناها صحيحٌ بلا شك.

ثمّ تأمّل حالَ قلبٍ داوم صاحبه في كل صلاة ـ وهذا واجب ـ سواء كانت نافلة أو فريضة أن يقول ـ متدبرًا مخلصًا ـ قبل السلام، وبعد التشهد ما أمره به رسوله ﷺ: «**اللهمّ إني أعوذ بك من عذاب جهنّم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال**»، أما يكون ذكر الآخرة وعذابها في قلبه على الدوام؟؟

وداوم في كلّ صباحٍ ومساءٍ ثلاثًا على قوله ﷺ: «**اللهمّ إني أعوذ بك من الكفر والفقر، اللهمّ إني أعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت**».
(رواه أبو داود وحسنه الألباني)

ثمّ تأمّل حال عبدٍ داوم كل صباحٍ ومساءٍ وقبل النوم على سيّد الاستغفار كما أمره رسوله ﷺ، وفيه: «**أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت**».

وتأمّل افتقارَ قلبٍ يقول: «**ربّ أعني ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، وامكر لي ولا تمكر عليّ، واهدني ويسر الهدى إليّ، وانصرني على من بغى عليّ، ربِّ اجعلني لك شكَّارًا، لك ذكَّارًا، لك رهّابًا، لك مطواعًا.....**» (رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني)،

فافهم قوله: «**رب اجعلني**»، فليس الأمر بجهدك ولا بعملك، ولكنّه توفيق الله وهدايته، وقد بيّن ﷺ ذلك أيضًا بقوله: «**اللهمّ أستهديك لأرشد أمري**» (رواه الإمام أحمد وصححه الألباني)، فالله هو الذي يعلم الأرشد من الراشد، والأفضل من الفاضل، ومن استحضر هذا بقي مفتقرًا إلى الله على الدوام ـ ولو كان سيد العارفين ﷺ ـ.

وتأمّل دعاءه ﷺ: «**اللهمّ رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ، وأصلح لي شأني كلّه، لا إله إلّا أنت**» (رواه أبو داود وحسنه الألباني) لتعلم كيف كان افتقاره إلى ربه ﷺ.

وتأمّل حال عبدٍ يقول عند كلِّ دخولٍ للمسجد ـ من قلبه ـ: «**أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، اللهمّ افتح لي أبواب رحمتك**» وعند الخروج منه: «**اللهمّ إني أسألك من فضلك، اللهمّ اعصمني من الشيطان الرجيم**».

ويقول عند التوجه إلى المسجد: «**اللهمّ اجعل في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، واجعل في سمعي نورًا، واجعل في بصري نورًا، واجعل من خلفي نورًا، ومن أمامي نورًا، واجعل من فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، اللهمّ أعطني نورًا**».

ويقول في ركوعه: «**اللهمّ لك ركعتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، وعليك توكلتُ، أنت ربي، خشع سمعي، وبصري، ودمي، ولحمي، وعظمي، وعصبي لله رب العالمين**»، كيف يكون إخباته وخضوع قلبه وخشوعه؟؟

وهذا الذي يقول في سجوده: «**سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي، أبوءُ بنعمتك عليّ، هذي يدي، وما جنيتُ على نفسي**» ويقول: «**اللهمّ إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»، كيف يكون رضاه وزهده، ويقينه وحبه لربه عزّ وجلّ؟؟

وقِسْ على هذا باقي أدعية السُّنّة كأدعية الاستفتاح وأدعية ما بعد الوضوء، وعند النوم، وعند الاستيقاظ، وكذا أدعية القرآن العظيم، وما فيها من ثناءٍ على الله وتضرعٍ إليه، فمن أراد الهداية فعليه بلزوم الدعاء، وتأمّل قول زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما نقله القرآن ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (مريم: ٤)، وقول إبراهيم: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (مريم: ٤٨)، فمع الدعاء لا يشقى العبد أبدًا ـ فضلًا من الله ـ لكن بشرط التفهم والتدبر، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

السبب التاسع- صلاح القلب:

فإنّ القلب إذا صلح، ذاقت النفس حلاوة الدعاء، وكلّما كان الصلاح أعظمَ، كلّما ذاقت النفسُ الحلاوة أكثر، ولصلاح القلب أسبابٌ كثيرة، ولكن من أعظمها نفعًا لتحصيل حلاوة الدعاء:

(أ) ذكر الله:

فإنّه يعلّق قلب العبد بربه، وبه ينال العبد معية ربه، فيسهل عليه تدبر الدعاء والخشوع فيه.

(ب) كثرة الصلاة والإطالة فيها:

فإنّها صلة العبد بربه، وكلّما تعوَّد العبد على إطالة الصلاة كلّما كان أصلح لقلبه، وأدفع للشيطان عنه فيسهل عليه تدبر الدعاء، كما أنّ الصلاة من أولها إلى آخرها دعاء، فإذا أكثر العبدُ منها وأطال الدعاء فيها خاصةً بأدعية الثناء، كدعاء الاستفتاح، وأدعية الركوع والسجود، وما بعد الرفع من الركوع، كلما سهل عليه التضرع والخشوع في دعائه خارج الصلاة.

(جـ) حسن الخلق:

فإنّ سوء الخلق يفسد القلب ويفسد العمل ويمكِّن الشيطان من قلب العبد، فلا يكاد يجد للدعاء حلاوة وفي الحديث: «**وإنّ سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسل**».

(د) التعلّق بأسماء الله الحسنى وصفاته:

مثل: «الرحيم والكريم والودود» فيوقن العبد بأنّ الله لا يريد بعبده المؤمن إلّا الخير، وكذا «الحكيم والعليم والخبير» فيوقن العبد بأنّ كل ما يجري في الكون إنّما هو بحكمة الله ولمصلحةٍ عظيمة، فيتعلق قلبه بالله وحده يتوكل عليه ويفوِّض أمره إليه ويرضى بقضائه، وكذا «الملك والقيوم والقدير والعظيم»، فيوقن العبد بأنّه ما في الكون من ذرةٍ إلّا وهو مالكها سبحانه وتعالى والمتصرف فيها كيف يشاء، وبأنّ نفوس المخلوقات كلّها في قبضته لا يستطيع مخلوقٌ شيئًا ولا يقدر على شيء إلّا بإذن الله، وبأنّه سبحانه قادرٌ على حفظ عبده من كلّ سوء وقادرٌ على توفيقه لكل خيرٍ، فالأمور كلّها بيده عَزَّوَجَلَّ.

obeikandl.com

الفَصْلُ الرَّابِعُ

ثمار حلاوة الدعاء

فإنّ لحلاوة الدعاء ثمارًا يجنيها العبدُ المؤمن الذي ذاق هذه الحلاوة، فمنها:

(أ) الخشوع في الصلاة:

فإنّ الصلاة كلّها دعاء من أولها إلى آخرها، فمن ذاق حلاوة الثناء وحلاوة التضرع إلى الله بطلب الرحمة والمغفرة والعفو، خشع في صلاته ولابد حتى أنّه ربما أطال فيها جدًا دون كللٍ ولا مللٍ، ولهذا كثر في السلف من كان يطيل الصلاة حتى ورد عن سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّه دخل المسجد الحرام بعد المغرب فصلّى ركعةً فسجد، فما رفع رأسه حتى نودي بصلاة العشاء».

وعن أويس القرني أنّه كان يقول إذا قام الليل: هذه ليلة القيام فيقرأ قائمًا حتى الصبح، فإذا كان اليوم الثاني قال: هذه ليلة الركوع فيركع حتى الصبح، فإذا كان اليوم الثالث قال: هذه ليلة السجود، فيسجد حتى الصبح «أي: يركع ويسجد بعد قراءة الفاتحة وآيات يسيرة»، وتصعب جدًا مثل هذه الإطالة إلّا على القلوب التي ذاقت حلاوة التضرع والثناء.

(ب) التلذذ والتمتع بالحج والعمرة:

فمن ذاق حلاوة الدعاء لم يزدد مع كثرة الحج والاعتمار إلّا اشتياقًا ومتعةً، بخلاف الذي لم يذق حلاوة الدعاء؛ فإنّه يشتكي من عدم تذوقه لحلاوة هذين المنسكين العظيمين.

ويزيد من لذة العبد في دعائه أثناء الحج والعمرة حزنه على ما فيه من آفاتٍ وعيوبٍ، وعلمه بأنّ الدعاء فيهما أرجى للقبول، فتراه كلّما حجّ أو اعتمر ودعا رجع إلى بلده بزيادة

إيمان، ونورٍ في القلب يكشف له عن عيوبٍ وآفاتٍ أخرى، فلا يزال مشتاقًا حتى يذهب هنالك فيدعو ويتضرع بزوالها وبزيادة الإيمان أكثر، فإذا رجع وأبصر بنور قلبه عيوبًا أخرى اشتاق أيضًا، فلا يزال مشتاقًا إليها أبدًا لا يقضي منها وطرًا مهما أدّاها؛ ولذا ترى في السلف من حجّ ثمانين مرةً، ومن حجّ سبعين مرةً، ومن حجّ ستين مرةً، وما شبعوا ولا ملُّوا!!

(جـ) المعرفة بالله والأنس به وتذوق حلاوة الإيمان:

فإنّ العبد إذا ذاق حلاوة الدعاء ـ خاصةً دعاء الثناء ـ أنس بالله وتعلّق قلبه به، فيُرزَق المحبة والمعرفة، وكيف لا؟ والتدبر في الدعاء والتفهم لمعانيه من أكبر أسباب زيادة أعمال القلوب، وتخليص القلب من الآفات المهلكة، وتأمّل دعاءه ﷺ: «**اللهمّ إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم والقسوة والغفلة**»، ودعاءه ﷺ: «**وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق والسمعة والرياء**» (رواهما الحاكم وصححهما الألباني).

كما أنّ في الدعاء كمالَ افتقار إلى الله يذوقه من ذاق حلاوة الدعاء، والافتقار إلى الله هو الباب الأعظم الموَصِّل إلى معرفة الله ومحبته والأنس به.

كما أنّ الدعاء فيه كمال التفويض إلى الله والثقة فيه والرضا بقضائه، فيورث ذلك قلب العبد الرضا بالله وعن الله، وهو مستراح العارفين، وجنّة العابدين.

(د) إدمان الدعاء وتحصيل ثمراته:

فإنّ العبد إذا ذاق حلاوة الدعاء داوم عليه، ولم ينقطع عنه، فيحصِّل بركاته وثماره وفوائده الجمّة، بخلاف من لم يذق للدعاء حلاوة؛ فإنّه غالبًا ما ينقطع عنه، فيكون كما قال ﷺ: «**أعجز الناس من عجز عن الدعاء**» (رواه أبو يعلى وصححه الألباني).

كما أنّ العبد إذا ذاق حلاوة الدعاء سهل عليه جمع قلبه عليه، فيُستجاب له.

وهذا آخر ما قصدت إلى بيانه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمّد، وعلى آله، وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.